وقوله تعالى: ﴿وكلَّم الله موسى تكليمًا﴾[1] أريد فيه تحديد المزية التي فضل الله بها موسى على عباده، وهي كلامه إياه، ولم يخصص بلفظ التكليم فقط، بل أكد بالمصدر، أن هذا الكلام كان كلامًا، بالمعنى الصريح للفظ التكلُّم، وتركيز الاهتمام على حدث التكلم واضح في الآية لفظها وسياقها، يقول تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً. ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلَّم الله موسى تكليمًا﴾[2]. فحدد طبيعة الخطاب للرسل جميعًا بأنها وحي، ثم خصص خطابه موسى عليه السلام بأنه قد ﴿كلمه تكليمًا﴾ كما خصص خطابه داود بأنه إنزال الكتاب من السماء ﴿وآتينا داود زبورًا﴾ ومنها يفهم أن صحائف الزبور قد أنزلت كما هي وليس بطريق الوحي فخصَّها بلفظ يصف طريقة الخطاب «الإيتاء» بينما بين باستعماله لفظ «الوحي» طريقة مخاطبته الآخرين جميعًا سواء من ذكر في القرآن ومن لم يُذكر[3].

وقوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[4] فيه تحديد معنى القول حال إرادة الله حدوث شيء، وهو أن يقول له كن، فعرَّف القول الأوَّل بالقول الثاني لما جعل الثاني خبرًا للأول، وحدد مفهوم الثاني بالمقول وهو: (كُن) فالثاني أمرٌ بالتكوُّن.

والملحظ هنا دقيق، أنه رغم تكرار اللفظ، الأمر الذي يُتَوقع أن يفيد بيانًا أكثر، ورغم تعريف الأول بالثاني، فإنه لم يوضح بالتعريف كيفية القول، بل وضح طبيعته، فهو (أمر بالتكون). وتعمد إبقاء لفظ القول، لأن كيفية قول الله مما ينبغي أن يبقى خارج علم الإنسان. فالمعنيُّ بالآية أن نعرف قوة أثر الإرادة الإلهية، وهي الاستجابة الفورية للأمر بالتكون (فيكون)، وليس أن نعرف كيفية حدوث الخطاب الإلهي للأشياء الداخلة في إرادته. وقوله تعالى ﴿أنطقنا الله الذي أنطق كلَّ شيء﴾[5]. حدد فيه الفعل بلفظ «أنطق»، فالنطق يحدث، بكل ما يعنيه من تلفظ وصوت.

---

(١) النساء: ١٦٤. (٢) النساء: ١٦٣ - ١٦٤.

(٣) انظر: ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج١، ص٣١٨، وللتوسع في قضية المجاز انظر: بدائع الفوائد، الصواعق المرسلة، لابن القيم، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٣٢٥ وبعدها، ص٣٣٨.

(٤) النحل: ٤٠. (٥) فصلت: ٢١.